السرطان : الحرية. وها هو بينه وبين الخنزير هوة لا تشدهما والجنس طروادة . الجنس حرب والخنزير لا ينفجر. ويوم القيامة يخرج من الجثة : « فطريق الوطواط واضح » . هو والله والموت سيخرجون من الجثة . ومن ثم الى اين ؟ ما قيمة الخروج من الجثة ؟ انه سيرى شعوب الارض فقط دونما معنى او هدف . والسهم يشير الى الفراغ وعلى الصيادين ان ينتهوا في الفراغ ، فصديقه يتناسل ولطخة انتقامه تأكله . وهو صامت و«لن يستنجد ضد ما يجهل » و « نجمة البلد الابدي ... اكثر حقيقة من صوت المرآة الآخر ، انقى من غريق ملاك » و «تغوص النجمة في شيء ما يحملها واتبعها لنتحد ، وسراً بصمت عال تدخل اخبارنا المقفلة ، تخرج من الطرق ، نقطعها بثلوج الشمس الحمراء » . والموت طروادة ! الموت : نجمة البلد الابدي تعيده الى المرأة اخيراً: «اسكتيني يامن تزينها قشعريرتي ولينطلق عرسنا من الابواب الاخرى . اطفئي كل بريق في عيني ولا يبقى غير بحرك يحلم بيدي المعميتين ، اجراس لذته المجنونة » . لكن النهر جرفه ولم تروه المرأة وها هو في العيون جالس يغنيها اغنيته ، فيدحرج وجهه ولا تراه . فما نفع العالم باغنياته واعشابه ما دام الانسان مضطراً ان يستعير شفته واذنه ليصنع عشاقه ؟ ان انسي الحاج يتمم خطته في «لن» حيث رفض ان يستعير الخارج بل ان يحل في مستودع يستقطبه ، يبقاه ويحييه ، واخيراً اكتشف استحالة ما يرغب : فقد وقف الاخرون يرمقون ميتته ويسحبون شعرهم من القيظ. وبعد ان صفا وهدأ يأمر النبع ان يمر : « مري، ليس في الروح احد ». والحب لا يعشب فهو عينان مهملتان في القلب: فعاد ليعترف ان احاديثه ارصفة شتوية : « والرقص يحتاج الى اثنين وانا اعانق شخصاً لكنه مات على الجبل » . ورغم ما عبر وما رغب فهو ما زال على اتصال بالحلم المستحيل : «لو مرة كنت فراشة تخترق الاسود والحريق تخترق الجوزة والفراشة » .

ويدور العالم « وتنزل المقصلة حاملة اريجها »، « الامواج الغاصبة على الصخور مغتصبة »، «سمعت فيك انهياري ومت – كل سحابة ماتت » .

نقد واسطورة من السودان

« دراسات في شعر التجاني » لجماعة الادب السوداني . الخرطوم ، ١٩٦٣
« حياة تاجوج والمحلق » بقلم محمد صالح ضرار . الخرطوم ، ١٩٦٣

في مقدمة كتاب « دراسات في شعر التجاني » الذي اصدرته جماعة الادب السوداني بمناسبة المهرجان الذي أقيم للشاعر التجاني يوسف بشير بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاته ، يقول الناشر : «من اكبر مشاكل الادب في بلادنا هذه الانصرافية عن تراثنا الادبي في اشكاله كلها . فنحن نؤمن بأن السمات النفسية والخصائص المميزة لامتنا تترسب بشكل حتمي في آدابها الدارجة والفصيحة». بهذه النظرة الواعية المثقفة تفتتح جماعة الادب السوداني اول اعمالها نحو تحقيق غايتها النبيلة في التعريف بالتراث السوداني وازالة ما علق عليه من غبار الاهمال واللامبالاة .

وجماعة الادب السوداني واحدة من عديد من الجمعيات الادبية التي انبثقت في الاونة الاخيرة في السودان والتي تهدف الى تنشيط الحركة الادبية واحياء التراث الثقافي في السودان . ولقد ادركت جماعة الادب السوداني ان نقطة البدء في تركيز دعائم الادب السوداني وتنشيطه تستلزم العودة الى

التراث الادبي واحيائـــه ، اذ يستمد الادباء الناشئون من صفحاته معيناً وقوة وعبرة تدفعهم الى الانتاج الاصيل الذي يضرب بجذوره في اعماق تاريخهم وثقافتهم وحضارتهم ، لا ادباً مستورداً ناجزاً مقلداً .

على ان الناشر يدعي كثيراً اذ يوهم بأن هذا التراث قد ظل مقبوراً حتى اتيح له جماعة الادب السوداني تنفث فيه روحاً جديدة . ما من احد يريد ان يغمط فصل هذه الجماعة ومجهوداتها في هذا السبيل . ولكن من العدل ايضاً ان نشير الى ان مهمة احياء التراث الادبي في السودان قد ظلت محور نشاط هيئات وافراد عديدين . وان كان النشاط ظل محجوباً فبسبب عقبات النشر والتوزيع كما يذكر الناقد نفسه في مقدمته .

ومع ذلك فقد ظهرت بعض وجوه هذا النشاط في كتيبات الندوة الادبية وغيرها من الهيئات الثقافية والمحاضرات المختلفة وفي كتاب « ملامح من المجتمع السوداني » وكتاب « الشعر الحديث في السودان» وغيرها ، الى جانب المجهودات التي تقوم بها الجامعة والصحافة والمعاهد العلمية الاخرى في هذا الصدد .

وقيمة هذا المهرجان الذي اقيم لتخليد التجاني لا تنبع من كونه اول مهرجان يقام لتخليد شاعر او اديب ، فقد عرف السودان العديد من هذه المهرجانات ، كما شهد من قبل حفلات التأبين لعدد من الشعراء والكتاب . وفوق هذا فهو ليس اول مهرجان يقام للتجاني : فهناك مهرجان القاهرة والاسكندرية الذي اشترك فيه كثير من الشعراء والادباء الكبار كالدكتور ابراهيم ناجي . ولكن قيمته الاساسية تنبع من كونه اول مهرجان يقام لشاعر ويجد مثل هذا التجاوب الحماسي من كل قطاعات الشعب السوداني. فقد كانت ايام المهرجان عيداً قومياً اشتركت فيه الحكومة ومشى في موكبه الصامت اعضاء المجلس البلدي وممثلو الصحافة ودور العلم والثقافة والادباء .

وامام قبر التجاني الذي ظل مهملاً لا يتنبه اليه احد زهاء خمسة وعشرين عاماً وقف الموكب الرهيب يقدم على اعتابه باقة من الورد اعترافاً بعبقريته وشاعريته - اعترافاً جاء متأخراً ولكنه مؤثر جبار على كل حال .

والتجاني يوسف بشير شاعر وجداني صوفي في نبرات صوته كل حلاوة التغريد التي تنبع من وجدان صاف رقيق بكل عمق الصوفية المرهفـــة الحساسة التي ترتفع بصاحبها الى جنة اليقين لتلقي به في اتون الشك والحيرة ، وفي نغماته لهفة الحب وحنين الغربة والحرمان . وابيات شعره الملتهب طقوس في عبادة اله الحب والجمـــال . وقد عاش التجاني فقيراً محروماً ومات بداء الصدر ولما يبلغ السابعة والعشرين من عمره . مات وهو يحمل قلباً لم يرتو من ظمئه الابدي ، وترك وراءه اسطورة مازال النقاد والكتاب يحلون طلاسمها ، وشعراً رقيقاً تنهل منه نفوس الكثيرين في العالم العربي كله.

هذا هو الشاعر الذي تضمه دفتا هذا الكتاب القيم باقلام نفر من خيرة الكتاب والمفكرين في السودان ، تحاول ان تكشف في وعي وبصيرة عن جوانب هذا الشاعر الفذ . حسن نجيلة ، الاديب الذي سطر لنا ذكرياته القيمة عن فترة غنيـــة في تاريخ السودان الادبي والثقافي في كتابه « ملامح من المجتمع السوداني » ، يحدثنا في اسلوبه الشيق الرشيق عن التجاني كما عرفه وعن جيل التجاني كما خبره ، جيـــل المدارس السرية والصداقات الفكرية . ويحدثنا كيف التقى بالتجاني لأول مرة ،ومن خلال حديثه ترتسم في مخيلتنا صورة التجاني.

وفي موكب تخليد هذا الشاعر تشترك اقلام الادباء الاخرين ، كالاستاذ فاروق الطبيب الذي يتناول موضوع « التجاني في نظر النقاد » ، وبعين اديب ناقد يحلل لنا آراء النقاد في شعر التجاني ومن بينها الاراء التي وردت في كتاب « التجاني شاعر الجمال » للدكتور عبد المجيد عابدين الذي يعتبره الناقد من اقيم ما كتب عن الشاعر . وهو لا يكتفي بالسرد ، وانمـــا يتعمق هذه الاراء بالتمحيص والتعليق في اصالة وعمق .

هذا التحليل الاكاديمي يتحول الى شاعرية

مرهفة مثقفة على يد الشاعر السوداني الشاب صلاح احمد ابراهيم ، وهو يحدثنا عن العوامل النفسية التي اثرت في شعر التجاني . وقد اختار لدراسته عنواناً منتزعاً من دراساته العميقة في الادب الانكليزي فاسماها « الجرح والقوس » . والجرح هنا يمثل حياة التجاني المليئة بعوامل الفقر والكبت والحرمان والاضطهاد ، والقوس يمثل موهبته الشعرية التي حولت هذه الدموع الى لآلىء ، كما يحدث في بعض اساطيرنا السودانية . وفي رحلة فنية خيالية عبر اشعار التجاني مليئة بالوصفات الفكرية الجبارة يزيح لنا الكاتب الستار عن آلام الشاعر التي استحالت الى انغام عذبة يرتلها على قيثارته. يحدثنا الشاعر الشاب اننا حين نلتمس التجاني في شعره نجد « شاعراً استلهم الادب القديم وكان قيثارة الجديد ... كلمات مفاجئة وتعبيرات مدهشة وابتكار في اللغة غير مألوف، وصدق فني وشعوري وقسمات سودانية ، ومع ذلك فهو شاعر سما الى صعيد الاعجاز في المستوى العربي . شاعر رد الى الشعر السوداني كرامته » .

اما الاستاذ عبدالله الشيخ البشر رئيس جماعة الادب السوداني فينثر امامنا ثلاث قضايا في شعر التجاني : تطور العقيدة ، فلسفة الفقر ، والوطنية في شعره . ويستشهد على مناقشاته بابيات من شعر التجاني في تسلسل منطقي وحجج واعية وتناول علمي دقيق . والاستاذ عز الدين الامين يختار لموضوع حديثه : « من مظاهر الرومانتيكية في شعر التجاني » . وهو يحصر هذه المظاهر ، بعد استعراض سريع لتطور الرومانتيكية في الادب المعاصر ، في ثلاثة امور : لجوئه للطبيعة ،وقصائده الصوفية ، وميله الى الطفولة وحنينه اليها .

ولعل اكثر هذه الدراسات عمقا بحث الاستاذ الشاعر محمد محمد علي: «التجاني ووحدة الوجود». ولقد كانت فلسفة التجاني وايمانه بوحدة الوجود مصدر تكهنات عدد كبير من النقاد حتى اوشك هذا الزعم بقوة سيطرته ان يصبح حقيقة لا تقبل الشك . غير ان محمد محمد علي يأخذ في تفنيد الحجج التي تقول بايمان التجاني بوحدة الوجود في منطق هادىء واسلوب لا يكاد يقبل المراجعة او الجدل . والكاتب لا ينكر تأثر التجاني بالصوفية، ولكنه لا يراه من القائلين بوحدة الوجود . ويذكرنا ان الابيات القليلة التي توهم ذلك يجب ان ترد الى فنه في المبالغة . والتجاني في نظره ليس من متصوفة وحدة الوجود ولكنه من متصوفة الشك.

وفي المقال الاخير يرجع الدكتور عبد المجيد عابدين شك التجاني الى عامل الحيرة عند الشباب حين يحتدم الصراع النفسي بين القلب والعقل .

قبل قرن من الزمان ومن تلال البحر الاحمر في شرقي السودان ولدت اسطورة تاجوج ، قصة حب واقعية جرت حوادثها في ارض قبيلة الحمران بين المحلق ، الفتى الفارس الشجاع والشاعر العاشق ، وابنة خاله تاجوج ابنة زعيم القبيلة وذات الجمال الاسطوري الساحر الذي الهم الشعراء والكتاب عبر قرن من الزمان .

والغرام الملتهب في قلب الشاعر العاشق يستحيل الى انغام عذبة حلوة يتناقلها الشبان وتنشدها الفتيات عبر المسافات البعيدة . ويتقدم المحلق لخطبتها ويتم زواجه منها ، ويوقف الشاعر الفارس حياته وقلبه وشاعريته لحبيبته وزوجه . ولكن... تلاحق مأساة الاساطير الرومانسية الحبيبين فيفترقان بعد طلاق لا رجعة بعده. ويتحطم قلب المحلق ويهيم على وجهه يسكب مأساته في انغام دامعة حزينة . ثم يعود الى الحي فيجد زوجه قد اقترنت بصديقه فبصيبه الهزال ويحتضر في احضان حبيبته.

القصة كما ترى لا تختلف كثيراً عن القصص الرومانسية « كماجدولين » و«آلام فرتر » و«روميو وجوليت » وقصص العذريين كالمجنون وقيس لبني وغيرهما والتي وجدت تجاوباً لا حد له عبر قرون طويلة وتناقلتها السن الرواة ،فابتدعوا فيها ووجدوا فيها منفذاً واسعاً للخيال والوضع والتحريف،وخلدت لنا تراثا من الشعر الوجداني الرومانسي ما زال الناس يتناقلونه في شغف .

وقد اشتهرت قصة تاجوج والمحلق واصبحت في خيال الناس اسطورة يتناقلونها جيلاً بعد جيل حتى امحت معالم الحقيقة وسط ضباب الخيال الجامح . ولم يخل كتاب في تاريخ السودان منها ، فقد ذكرها الرحالة والمؤرخون كأشهر اسطورة سودانية وتناقلتها المجلات المصرية « كالطائف » و« البلاغ الاسبوعي »، كما ذكرها نعوم شقير في كتابه « تاريخ السودان » والدكتور محمد عوض محمد في كتابه « تاريخ السودان الشمالي »، ووردت في رحلة الامير يوسف كمال وفي « مذكرات السودان ومدوناته » وغيرها من المجلات والكتب .

وقد وجد الرواة في واقعة الطلاق بين المحلق وتاجوج برغم لوعة غرامهما متسعاً ليعملوا فيه خيالهم الفسيح . وانتقلت اسطورة تاجوج في كل انحاء السودان يتحاجى بها الشبان على ضوء القمر في القرى النائية . تقول هذه الاسطورة ان المحلق عاد من احدى غزواته العديدة وهو يلتهب غراماً وهياماً ، وبينما هو جالس مع زوجته تاجوج خطرات له فكرة مشؤومة : فالتمس منها ان تحقق له امنية عزيزة عليه. فلما اعلنت له اتهاطوع بنان حبيبها وزوجها ، طلب اليها الملحق ان تتجرد من ثيابها وتخطر امامه عارية حتى يتملى جمالها الذي طالما ارهقه وعذبه . فذهلت تاجوج ولكنها تمالكت نفسها ونفذت له طلبه ، بعد ان انتزعت منه قسماً بان ينفذ لها طلبها . وبعد ان ارتدت ملابسها طلبت اليه في هدوء ان يطلقها . وصعق المحلق ولم يجد بداً من تنفيذ قسمه . ذلك ان تاجوج وهي ابنة العز والسلطان رأت في طلب المحلق لها اهانة لكرامتها وحبها اذ يعاملها كما يعامل الجارية.

هذه الاسطورة الهمت شعراء الاغاني والكتاب ، وقد صدر اول كتاب لاديب سوداني حول مأساة تاجوج قبل عشرين عاماً ويتضمن طرفاً من اشعار المحلق .

وآخر سطر في هذه الاسطورة هو كتاب « حياة تاجوج والمحلق » للاستاذ محمد صالح ضرار . وهو مؤرخ معروف ينتمي الى قبيلة البجة التي انبثقت منها الاسطورة . وقد اوقف نفسه على دراسة اقليم البجة ، وله مؤلفات تاريخية قيمة في هذا الصدد، كما اعتمد عليه من المؤرخين السودانيين والاجانب. والاستاذ ضرار لا يعالج قصة تاجوج كاسطورة ، وانما يحاول جاهدا ان يحققها كحادثة تاريخية واقعية . وقد تكلف في ذلك جهداً كبيراً، اذ انتقل بين قبائل الحمران يلم شعث القصة ثم سطرها في اسلوب فيه شيء من الجفاف .

ولهذا الكتاب هدفان : اولهما انكار غزو الهدندوة لديار الحمران وسلبهم لتاجوج كما تقول الاسطورة ، والثاني وهو المهم نفي الزعم الذي يقول بان سبب الخلاف بين العاشقين طلب الملحق لتاجوج ان تتجرد من ثيابها وترقص امامه عارية. ويقول ان الغرض من وضعها هو الحط من قدر البجة وقد دسها اصحاب الاغراض الدنيئة ، وانه لو صح ما تقول الاسطورة لكان للمحلق مع اخيها وابيها موقف حزم وشدة ربما ادى الى سفك الدماء.

على ان المؤلف اذ يحاول مخلصا ان يجرد الاسطورة من هذا الادعاء لا يأتينا بسبب مقنع يمكن ان نرتاح اليه. فهو يحدثنا ان سبب الخلاف بين تاجوج والمحلق انه تغزل فيها كثيراً واكثر من وصفها ، فلامه رجل من قبيلته اسمه النور ، فاعتذر له المحلق بان سحرها لا يقاوم وان النور لو رآها لعذره . وتأكيداً لقوله صحب النور معه الى خباء زوجته سرا ثم ثقب الخباء . ولحظت زوجه ذلك . ودخل المحلق وطلب من تاجوج ان تلبس ازار الرقص لانه يريدها ان ترقص له وحده . فاشترطت عليه ان ينفذ لها طلبها ان فعلت ، فوافق دون تردد . وحين ارتدت ملابسها طلبت منه الطلاق ، اذ رأت في هذا التصرف امتهاناً لكرامتها .

وكلتا القصتين كما ترى مدعاة للشك من الوجهة الواقعية ، بل ان قصة المؤلف اقرب الى الاسطورة من الاسطورة. وربما يستطيع مؤرخ ان يكشف حقيقة القصة التاريخية في يوم من الايام . ولكن ذلك لن يمحو الاسطورة او يزيلها من الوجود ، لانها حقيقة قائمة بذاتها .